طرابلس الشام

في سنة ١١١٢ هجرية اي منذ مائتين وعشرين سنة تقريباً زار الشيخ عبد الغني النابلسي مدينة طرابلس

والشيخ عبد الغني هـذا مفخرة من مفاخر دمشق الشام وواسطة العقد الذي ينتظم علماءها الاعلام :

كان رحمه الله عالماً فقيهاً اصولياً صوفياً اديباً شاعراً وهو مشهور بالولاية وله قدم وذوق في علم الاحوال . وقد ألف في معظم فنون زمانه حتى فن الفلاحة والزراعة . فـلا غرو اذا احتفل به اهل طرابلس الاحتفال اللائق بعلمه وفضله وشهرته التي ملأت الخافقين

وكان سبب زيارته طرابلس دعوة من حاكمها اذ ذاك أرسلان محمد باشا « قصداً للنفع العام »

تولى ارسلان محمد باشا الحكم في طرابلس بعد سقوط اسرة آل سيفا الشهيرة في تاريخ سوريا والتي حكمت في طرابلس وعكار وعرقه وما يلي ذلك من النواحي حقبةً من الزمان ثم زال حكمها سنة ١٠٦٨ هجرية

ولما وصل الشيخ النابلسي الى طرابلس الشام ذهب تواً الى « دار السعادة » وهو اسم لمنزل الامير ارسلان باشا المشار اليه . لكن الامير كان قد اعدَّ لنزول الشيخ داراً اخرى وهي دار حسين جلبي آغاة مينا طرابس . والذي يسمع وصف هذه الدار يخال نفسه في عالم الف ليلة وليلة وانه يقرأ فصلاً من فصولها : « فقد كانت تلك الدار . كجنة النعيم دار

القرار . تنتعش فيها الارواح . وتبتهج بهـا الاشباح . وهي محتوية على بيوت فاخرة . واماكن كثيرة عامرة . ذات مياه رائقـة واحواض دافقة . وفي ساحة هذه الدار بركة ماء طولها اربعة عشر ذراعا . وعرضهـا سبعة اذرع وباعا . وامامها مقعدان . لطيفان . وعليهما عرائش العنب . وبينهما فسقية صغيرة من الرخام الابيض يتدفق ماؤها كأنها كاس بلور زانه الحبب . وبأرجاء هذه الدار بساتين واشجار . ورياحين وازهار . ما بين ياسمين وسيسبان . واشجار نارنج وفاغية وريحان ...» وكنت منذ ايام سمعت مدير مينا طرابلس يساوم في اجرة دار يريد سكناها في المينا فلم يشأ ان يدفع سوى ثلاثة ريالات في الشهر . اما آغاة المينا منذ مائتين وعشرين سنة فقد كانت له — عدا الدار التي مرَّ وصفها — دار اخرى في المينا لا تقل شيئاً عن تلك الدار : فقد كانت « قصراً رفيعاً . ومكاناً مشرفاً بديعاً . وهو مطل على البحر المتلاطم بالامواج . وشبيه في سموه بهاتيك الابراج . وجهاته مطلقة . وجوانبه على هاتيك البساتين والمرج الاخضر مشرقة »

وقوله « هاتيك الابراج » إشارة الى ابراج او مسالح سبعةٍ مبنية على شاطئ البحر امام طرابلس الشام . كانت تشحن بالسلاح والذخائر والمقاتلة لحماية الثغر من عدوٍّ مهـاجم او قرصان متلصص . وبين البرج والبرج الف خطوة أو اكثر او أقل . وهذه الابراج من بناء الصليبيين . لكنّ المسلمين لما استولوا عليها كانوا يرمّمونها ويزيدون فيها ما يكسبهـا قوة ومَنَاعة . وفي بعض هـذه الابراج محرابٌ للصلاة ، ومن ثمَّة ذهب بعضهم الى ان هذه الابراج مما شيده المسلمون . لكن التحقيق انها من

آثار الصليبيين . ولم يبقَ منها اليوم سوى برجين ماثلين في الساحة التي اتخذت الآن محطة كبرى للسكة الحديدية التي تصل طرابلس بحمص وتتم بعد بضعة اشهر . وعما قريب يعفى اثر البرجين المذكورين من لوح الوجود كما عفى اثر سائر الابراج التي اشتراها الاهلون من الحكومة وشادوا عليها وبانقاضها مخازن وبيوتاً

لبث الشيخ النابلسي في طرابلس زهاء خمسة عشر يوماً . وقد اجتمع بفضلائها وعلمائها . وتجوَّل في أرياضها ومتنزّهاتها . وأحصى جوامعها وحماماتها . ولما ركب زورقاً للنزهة في البحر ورأى أشكال القوارب . ومختلف هيئاتها سأل عن كل واحد منها وسرد أسماءها . فكانت عشرين نوعاً

وكان اذا ذكر حماماً قال ان مسلخه كبير أو صغير وفيه حوض من رخام أو ليس فيه . وذهب بعض الفضلاء الى انه يريد بكلمة المسلخ المكان الذي فيه يسلخ المغتسلون ثيابهم اي ينزعونها . وقد اعاد هذه الكلمة مراراً . فكأنها كانت شائعة في زمانه . ولا نعلم ان كانت تستعمل اليوم في دمشق بهذا المعنى أولا ؟

وكانت تجري بين الشيخ النابلسي وبين علماء طرابلس وفقهائها مذاكرات ومباحثات ومطارحات . وكان معظمها او كلها يدور حول غرائب الابحاث ونوادر المسائل النحوية والفقهية كمسائل الوقف والطلاق وغير ذلك . فكان كل منهم يذكر قولاً رآه في بعض الكتب لبعض الفقهاء ويطلب رأي النابلسي في المسألة أو هو يطلب رأيهم فيما اشكل عليهم أمره

ومما يستدعي الملاحظة ان علماء طرابلس أو علماء ذلك العصر كانوا

مفتونين بحب كتب العلم ، يتنافسون باقتنائها ويتباهون بنوادرها . فكان الشيخ النابلسي كلما زار فاضلاً في داره عرض عليه ما عنده من نفائس الكتب ونوادر الاسفار العلمية والادبية ويأخذ كل منهم في سرد ما يعلمه من هذا القبيل

ومما يلاحظ أيضاً ان مدة الخمسة عشر يوماً التي قضاها النابلسي في طرابلس - وكانت كلها مذاكرات ومباحثات — لم يجرِ فيها ذكر لمدارس التعليم — فلم يُذكر تلميذ ولا مدرسة . ولا للعائلة - فلم تذكر امرأة ولا تربية ولا بيت . ولا للصناعة والتجارة — فلم تذكر حرفة ولا بضاعة ولا حانوت . ولا للعادات والتقاليد — فلم يذكر شيء من امور الافراح والمآتم والحفلات الاخرى حتى كأن طرابلس في ذلك العصر ليس فيها تلميذ ولا امرأة ولا صانع ولا تاجر ولا شيء من مميزات كل هيئة اجتماعية أو ان الكلام في هذه الاشياء ليس مما يُهتم به أو هو مما لا يحسن ان يدور الحديث بشأنه بين رجال الطبقة العالية

وأغرب من جميع ما ذكر أنه لم يجرِ حديث بينهم عن شؤون السياسة واخبار الحكومة واحوال الدولة ، فلم تذكر اسلامبول ولا اسم السلطان ولا محاربة ولا معاهدة ولا وزارة ولا شيء من هذا القبيل . مع أن الطبقة التي يجالسها الزائر الكريم من اعلى طبقات طرابلس في العلم والوجاهة والنفوذ والاتصال بالمقامات العالية خارج طرابلس . فهم الحكام الاداريون . والقضاة والمفتون

فما اكبر الفرق بين زمننا هذا الذي يذكر فيهِ اسم الحكومة وشؤونها

الوفاً من المرات كل يوم — وذلك الزمن الذي لم اسمعهم ذكروا فيه شيئاً من هذا القبيل مدة خمسة عشر يوماً . فسبحان مغيّر الاطوار . ومقلب الليل والنهار

المغربي

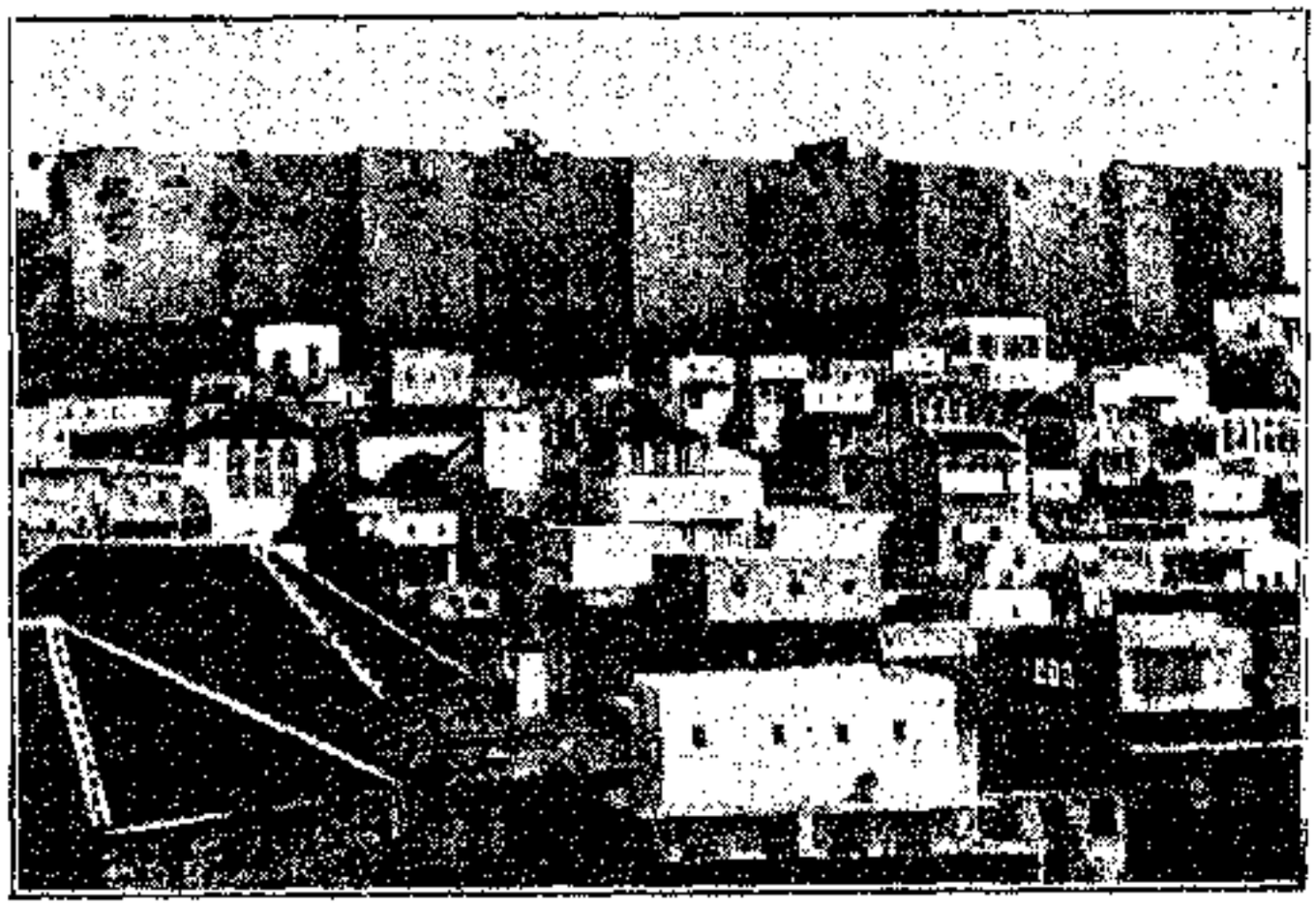

طرابلس وقلعتها

قال الاديب صاحب الامضاء يصف موقعاً بديعاً قامت في سفحه مدينة طرابلس الشام موطن اسرتهِ . وتظهر البلدُ للمشرف من هذا الموقع وقد انسحبت وراءها البساتين وجرى من خلفها البحرُ يرتجفُ وليس بينها وبين السماء في نظر العين إلاَّ ان تتخطاه :

يا صخرةً حملتنا في ذرى جبلٍ　　اليهِ مَعطفُ قلبي حين ينعطفُ
إن شبّهوا بكِ قلباً قاسياً فأنا　　اراكِ قلباً بنا من حبهِ شغفُ
كم في لياليكِ انفاسٌ يكادُ بها　　قلبي ـ وقد ذكرَ الاحبابَ ـ يُختَطفُ
آنستُ من مسّها في مهجتي سحرًا　　مسَّ اللحاظِ تحيّنا وتنصرفُ

كأنَّ اضواءها في القلبِ من طربٍ مواقعُ الامل المظنون تنكشفُ
تواقفتْ ومضتْ تهوي على عجلٍ كالطيرِ صفَّ[1] ولكن لم يكد يقفُ

* * *

اعليتِنا الجوَّ نستجلي محاسنهُ كأننا لسماء الله نزدلفُ
نلوح في «عين» «راء» نحوكِ اطلّعتْ «كهمزة» رفعتها فوقها «ألفُ»
نرى طرابُلسَ تبدو كالحمامةِ في وكرٍ لها اظهرتهُ روضةٌ أنُفُ
والبحرُ يحكي ذراعاً للسماء بهِ تزحزحُ الارض عنها فهو يرتجفُ
مناظرٌ ما اختلفنا في محاسنها والحسنُ انواعهُ فيهنَّ يُختلفُ
فيا طرابُلسُ حيّتكِ المنى بلدًا بي من هوى الحسن فيهِ فوقَ ما اصفُ
أحسّ بين ضلوعي كلما خطرتْ ذكراكِ أنَّ اليكِ القلبَ ينحرفُ

مصطفى صادق الرافعي

يافا

قال البهاء زهير ملغزاً في مدينة يافا

بعيشك خبرني عن اسم مدينةٍ يكون رباعياً اذا ما كتبتهُ
على انه حرفان حين تقولهُ ومعناه حرف واحد ان قلبتهُ

---

(١) صفّ الطائر : بسط جناحيهِ في السماء